

النفحة العاشرة: استغلال الوقت في رَمَضَانَ

بلوغ شهر رَمَضَانَ وصيامه نعمة عظيمة من نعم الله تعالى، فكم من مؤمل أن يصوم هذا الشهر فخانه الأمل، فصار قبله إلى ظلمة القبر، وكم من مترقب حلول هذا الشهر خطفته يد القدر، وكم من مستقبل يوماً لا يستكمله، ومؤمل غداً لا يدركه، فالحمد لله والشكر على منته الكبري أن بلغنا رَمَضَانَ، ونسأل الله العلي القدير أن يعيننا على ملء أوقاته بالطاعة والإنابة لننال الغفران، وعدم هدر أيامه ولياليه في مقت الله ومعصيته.

يا ذا الذي ما كفاه الذنب في رجبٍ لقد أظلك شهر الصوم بعدهما واتل القرآن وسبح فيه مجتهداً واحمل على جسد ترجو النجاة له كم كنت تعرف ممن صام في سلف أفناهم الموت واستبقاك بعدهم ومعجبٌ بثياب العيد يقطعها حتى متى يعمر الإنسان مسكنه	حتى عصى ربه في شهر شعبان فلا تصيره أيضاً شهر عصيان فإنه شهر تسبيح وقرآن فسوف تضرم أجساد بنيان من بين أهل وجيران وإخوان حياً فما أقرب القاصي من الداني فأصبحت في غدٍ أثواب أكفان مصير مسكنه قبرٌ للإنسان
---	--

أيها الأحباب الصائمون:

حديثي إليكم اليوم عن استغلال الوقت في رَمَضَانَ، لأن الوقت هو رأس مال الإنسان في هذه الحياة البالية، يربح إن أحسن استخدامه، ويخسر إن أساء استغلاله، إن فرط في الوقت وضيعه فقد ضيع دنياه وآخرته، وإن حافظ عليه فقد حفظ دنياه وضمن آخرته، فالوقت هو أنت أيها الإنسان، فإن زال زلت، وإن بقي بقيت إلى حين موقوت.

ورمضان ضيف عزيز مرتحل، يحل في مراكبك اليوم، ويحزم حقائبه ويسافر

غداً، أنفاسه خاشعة، وساعاته ذهبية ثمينة، لياليه مليئة زاخرة بتجليات الرحمن وفيوضاته، وساعات النهار مزدحمة بنفحات الحق وعطاءاته، والكيس الذي لا يدع ساعات ليل أو أطراف نهار إلا ويجعلها مطية طاعة ومركب عبادة.

ولطالما استرعى القرآن الكريم انتباهنا للحفاظ على الوقت واغتنامه، وللسمعي الحث والمبادرة الأكيدة لاستغلال أيام العمر بكثرة الطاعة والإنابة، يقول الله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [إبراهيم: 33]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَن أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: 62].

وهكذا أقسم ربنا تبارك وتعالى بالعصر والفجر وبالليل والنهار والضحي وسائر الأوقات، ليبين لنا قيمة الوقت وأهميته، ويرشدنا إلى أمثل المسالك في صونه وحسن اغتنامه، كما حذرنا من أن تعاقب الليل والنهار، ودوران الشمس والقمر بشكل دؤوب مستمر، دليل على انقضاء الآجال، وانصرام الأعمار، فالليبي الذي جعل من عمره مزرعة خير وصلاح، يجني ثمار النجاح والفلاح في عاقبة أمره.

وكم ندّد القرآن بأولئك الذين أضاعوا أعمارهم فيما لا طائل منه، أو في اللّهُو والمجون، والمعاصي والذنوب، ومنهم من أضاع وقته في محاربة الهدى والصد عن سبيل الله تعالى، ولنصغ معاً إلى طائفة من هذه الآيات، التي تصف تحسر المفرطين يوم القيامة وندمهم الشديد، ولكن ولات ساعة مندم...

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَتَسَّأَلُ الْقَرِيبُ الْبَعيدَ﴾ [الزخرف: 38].

وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ تُفْعَلُونَ عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذَّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَكَوْنُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: 27].

وقال جلّ في علاه: ﴿يَوْمَ نُقَلِّبُ وُجُوهَهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾ [الأحزاب: 66].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَعْدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ قَوْدًا لِّوَأَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُنذِرْكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ زَوْفٌ بِالْيَبَاقِ﴾ ﴿٣٠﴾ [آل عمران: 30].

إن هذه الآيات بمجملها تحاصر الإنسان برصيده من الخير والشر، وتصور له نفسه وهو يواجه هذا الرصيد مواجهة المقر المعترف، ولكن ولات حين مفر أو خلاص، إنها مواجهة تشتد فيها حسراتهم حتى لكأنها ممحضة للتحسر والندم، وكيف لا يتحسرون وكانوا فيما سلف من دنياهم يرون يد القدرة في الآفاق والأنفس، تحرك كل شيء وهم معرضون، وفي غيهم سادرون، ولأعمارهم وأوقاتهم في الشهوات مضيعون، يرون الحقائق الكونية الكبرى التي تملأ القلب والمشاعر والبصر والأحاسيس بالرهبة والخشوع والإجلال فيعرضون، يشاهدون ديب ضياء النهار وإشراقه على أذيال ليل مهزوم، وتنفس الصبح في غيابة الظلام، وتسرب غبش الليل إلى وضاعة النهار، يطول الليل وهو يأكل من النهار في مقدم الشتاء، ويطول النهار وهو يسحب من الليل في مقدم الصيف، وهذه الحركات الهادئة المنتظمة في كيان الكون، بل وفي كيان وأعماق كل حي، من شأنها أن تبعث في النفوس والعقول وهج اليقين بالله تعالى، ولكنهم عن آيات الله لاهون، فضاعت أعمارهم بالغفلة والشroud، فحق عليهم قول ربهم وعذابه.

ورسولنا ﷺ أكد قيمة الوقت وأهميته، والحرص على اغتنامه في صالح الأعمال والخيرات والمبرات، قال ﷺ: «لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة حتى يسأل عن خمس، عن عمره فيم أفناه، وعن شبابه فيم أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وما عمل فيما علم»⁽¹⁾، وقال ﷺ: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ»⁽²⁾.

(1) رواه الترمذي، 4/ 612، رقم: (6049)، وقال المنذري في الترغيب والترهيب، 1/ 73، هذا الحديث حسن في المتابعات.

(2) رواه البخاري، 5/ 2357، رقم: (6049).

والسؤال عن إضاعة العمر، وتضييع وقت الشباب وغيرها من الأسئلة المطروحة على العبد يوم القيامة، إنما تدل على حض الإسلام العبد على ادّخار الصالحات، والانتفاع بكل دقيقة من دقائق الحياة الدنيا، لأن الدنيا توطئة الآخرة، وميدان التنافس للكسب أو الخسران هناك، ولكم أيها الصائمون: أن تتذكروا بأن الحق ﷻ ربط العديد من شعائر الإسلام والعبادات بأوقات مخصوصة، فمن ذلك مثلاً: الصوم الذي نعيش نفحاته الآن، قال تعالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: 185].

والصلاة، يقول تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ [النساء: 103]، أي محدّدة بوقت معين ينبغي أن تؤدّى فيه، وكذلك الحج، قال سبحانه: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنْهُنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا سُورَةَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ [البقرة: 197].

وأداء الزكاة حددت بحولان الحول على المال، وكذلك الكثير من الشعائر الإسلامية قد ارتبطت بأوقات معلومة، وكذلك فإن هناك عدداً ليس بالقليل من الأحكام التشريعية حددت بأوقات مقدرة ككفارة الظهار، والقتل الخطأ، وعدة المرأة المطلقة أو التي توفي عنها زوجها...

ولا شك أن هذا التنظيم الإسلامي للأوقات إنما جاء ليروض النفس البشرية على ملازمة الانضباط العملي الهادئ، وبرمجة الحياة على أساس سلوكيات منظمة مطّردة في صلاحها وأهدافها، بعيدة عن التقلب والتردد الذين يفضيان في النهاية إلى الكسل والإحباط، وكذلك فإن هذه المواقيت تزرع في كيان العبد الإحساس العميق بأهمية انقضاء الزمن، وتربيته على الالتزام الكامل بالمواعيد المبرمة مع ربه سبحانه، ومع عباد الله.

أيها الصائمون الكرام:

لن يستشعر المحلم روح الصوم ونفحاته، ما دام يقضي نهاره كله أو جُلّه بالنوم، ولن يستلذ بحلاوة المناجاة الربانية ما لم يعيش ظمأ النهار وجوعه، لأن من

مقاصد الصيام أن يجوع الإنسان ويعطش حتى تخمد ثورة شهواته، ونار نزواته وتشرق أنوار عبادته وومضات طاعته، وحتى يستشعر بالروابط الإيمانية بينه وبين فقراء المسلمين الذين لا يجدون فتات خبز يابس يأكلونه، أما إن جعل نهاره نوماً لا يقوم إلا للصلاة ثم ينام، وليله سهراً على المباحات على أقل تقدير، فأين الصوم وأين حكمه؟ وأين ذكر الله تعالى وعبادته، وأين اغتنام وقت الصيام في الطاعة والخير والهدى والنور؟

وهناك صف آخر من الصائمين يفتخرون ويتباهون، بل ولربما يدعون غيرهم إلى ألعاب مبتكرة، واخترعت خصيصاً لرمضان، ومن أجل ماذا ابتكرت؟ من أجل تضييع الأوقات؟

عجيباً لمثل هؤلاء، رَمَضَانَ واحة رناء للعبادة، وكسب الحسنات، والتزود من القربات، وأوقاته وما حملت من كنوز الصلاح، هي التي ستكون السراج المضيء إلى جنان النعيم، نأتي اليوم ونبحث عن شتى فنون الملهيّات، من ألعاب واجتماعات ومنتديات، بقصد قتل الوقت وتضييعه، وهذا ما نراه في الأسواق والمراكز العامة، حيث تكتب لافتات عريضة، وتعلق إعلانات مبهرجة مضيئة لألعاب مخصوصة لتضييع الأوقات... ولا حول ولا قوة إلا بالله.

أين نحن يا إخوتي الكرام من سلفنا الصالح، واغتنامهم للوقت في رَمَضَانَ وغيره، كانوا لا يضيعون لحظة من يومهم، إلا ملوها بالتبتل والتفكير والمسارة في الخيرات ومرضاة الله تعالى، يقول عون بن عبد الله: إن الله يدخل الجنة أقواماً وفوقهم ناس في الدرجات العلى فلما نظروا عرفوهم، فقالوا: ربنا إخواننا كنا معهم، فيمّ فضلتم علينا؟ فيقول: هيهات هيهات، إنهم كانوا يجوعون حين تشبعون، ويظمئون حين تروون، ويقومون حين تنامون.

وهذا أبو سليمان الداراني يعبر عن اغتنامه لوقته في مناجاة ربه فيقول: أهل الليل في ليلهم ألد من أهل اللّهُو في لهوهم، ولولا الليل ما أحببت البقاء في الدنيا.

وكان عبد العزيز بن أبي رواد رحمه الله تعالى، إذا جنّ عليه الليل يأتي فراشه

فيمر يده عليه فيقول: إنك لين، ووالله إن في الجنة لألين منك، ولا يزال يصلي الليل كله.

ويقول ابن الجوزي في صيد الخاطر: (رأيت العادات قد غلبت على الناس في تضييع الزمان، وكان القدماء يحذرون من ذلك، قال الفضيل: أعرف من يعد كلامه من الجمعة إلى الجمعة.

ودخلوا على رجل من السلف فقالوا: لعلنا شغلناك، فقال: أصدقكم كنت أقرأ فتركت القراءة لأجلكم.

وجاء رجل من المتعبدين إلى سري المقطي، فرأى عنده جماعة فقال: صرت مناخ الباطلين، ثم مضى ولم يجلس.

وممن كان يحفظ اللحظات عامر بن عبد قيس، قال له رجل: قف أكلمك، فقال للرجل: فأمسك الشمس.

وكان داود الطائي يستف الفتيق ويقول: بين سف الفتيق وأكل الخبز قراءة خمسين آية.

وأوصى بعض السلف أصحابه فقال: إذا خرجتم من عندي فتفرقوا لعل أحدكم يقرأ القرآن في طريقه، ومتى اجتمعتم تحدثتم.

ومما يعين على اغتنام الزمن الانفراد والعزلة مهما أمكن، والاختصار على السلام أو حاجة مهمة لمن يلقي، وقلة الأكل، فإن كثرت سبب النوم الطويل، وضياح الليل⁽¹⁾.

وذكر أبو الحسن العطار تلميذ الإمام النووي رحمه الله تعالى: (أن الإمام النووي كان لا يضيع له وقت لا في ليل ولا في نهار، إلا في اشتغال بالعلم، حتى في الطريق يكرر أو يطالع، وأنه دام على هذا ست سنين، ثم أخذ في التصنيف والإفادة والنصيحة وقول الحق وكان لا يأكل في اليوم والليل إلا أكلة بعد العشاء

(1) صيد الخاطر، لابن الجوزي، ص 419 - 420.

الآخرة، ويشرب شربة واحدة عند السحر، ويمتنع من أكل الفواكه والخيار ويقول: أخاف أن يرطب جسمي ويجلب لي النوم، ولم يتزوج، ولازم الاشتغال والتصنيف ونشر العلم، والعبادة والأوراد والصيام والذكر، والصبر على العيش الخشن في المأكل والملبس ملازمة كلية لا مزيد عليها⁽¹⁾.

ونحن يا إخوتي لا نطلب من أحد أن يكون مثل هؤلاء، فهؤلاء عظماء، من الصعب أن تعلقو همتنا لما وصلوا إليه، ولكننا نسوقهم كأمثلة وقدوة يحتذى بهم، والتشبه بهؤلاء الكرام فلاح، وما نريده أن لا نضيع أبهى وأنقى ليالينا بتوافه الأمور، فليالي رَمَضَانَ ليالي الطهر والصفاء، تطهر من الذنوب والخطايا، وتصفى القلوب من الأدران، فيتسنى للعبد أن يجدد صفحة قلبه وعمله مع خالقه سبحانه وتعالى، فيكسب العبرات الحارة في محراب العبودية له سبحانه.

وهذا الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى يقول: الوقت أعز شيء على المؤمن، يغار عليه أن ينقضي، فإذا فاته الوقت لا يمكن استدراكه، لأن الوقت الثاني استحق واجبه الخاص.

والوقت أنفس ما عنت بحفظه وأراه أسهل ما عليك يضيع ويقول رحمه الله: إضاعة الوقت أشد من الموت، لأن إضاعة الوقت تقطعك عن الله والدار الآخرة، والموت يقطعك عن الدنيا وأهلها.

ورَمَضَانَ أيها الأحباب: يأتينا في هذه الأعوام في فصل الشتاء، والشتاء ربيع المؤمن، لأنه يرتع فيه في بساتين الطاعات، ويسرح في ميادين العبادات، وينزه قلبه في رياض الأعمال، فالمؤمن باستطاعته أن يصوم النهار من غير مشقة ولا كلفة تحصل له ومن غير جوع ولا عطش، فنهاره قصير بارد، فعجباً لمسلم يفطر في رَمَضَانَ، ثم عجباً لمن يقضون نهار رَمَضَانَ في الكسل والنوم العميق، وهو سهل هين لين.

(1) قيمة الزمن عند العلماء، عبد الفتاح أبو غدة، ص 72 - 73.

كان سلفنا الصالح رضوان الله عليهم يعتبرون أيام الشتاء غنيمة، سواء في رمضان وغيره، فيكثرون من الصيام في النهار، والقيام في الليل، يقول أبو هريرة رضي الله عنه: ألا أدلكم على الغنيمة الباردة؟ قالوا: بلى، قال: الصيام في الشتاء، ومعنى كونها غنيمة باردة أي أنها غنيمة حصلت بغير قتال ولا تعب ولا مشقة، فصاحبها يحوز هذه الغنيمة عفواً صفوفاً بغير كلفة.

وقال الحسن: نِعَمَ زمان المؤمن الشتاء، ليله طويل يقومه، ونهاره قصير يصومه، وقال معضد العجلي رحمه الله: لولا ثلاث: ظمأ الهواجر، وقيام ليل الشتاء، ولذة التهجد بكتاب الله، ما بليت أن أكون يعسوباً - ذكر النحل -، وبكى معاذ بن جبل رضي الله عنه عند موته، وقال: إنما أبكي على ظمأ الهواجر، وقيام ليل الشتاء، ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر.

أرايتم أيها السادة:

كيف كانوا يتحسرون ويبكون على أيام مضت ولم يصوموا ويقوموا فيها، والله إنما يقولون هذا الكلام تواضعاً منهم، واتهاماً منهم لأنفسهم، وإلا فهم الذين صحبوا الحبيب صلى الله عليه وسلم، وقرنه خير القرون، وهم أنزل في حقهم قرآن يتلى: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجُونَ ﴿٧﴾﴾ [الذَّارِيَات: 17].

وفي المقابل فإنك إن لم تشغل نفسك بالحق شغلتك بالباطل، ذلك لأن الفراغ آفة من أخطر الآفات، وفي أحضان فراغ الوقت تولد آلاف الرذائل، وتختمر الأوبئة والجراثيم الفتاكة التي تجتاح العالم، إذا كان ملء الوقت رسالة الأحياء، فإن فراغ الوقت كفن الموتى، وإذا كانت حياتنا الدنيا التي نعيشها اليوم مزرعة لحياة كبرى تعقبها، فإن الفارغين أحرى الناس أن يحشروا مفلسين لا حصاد لهم إلا البوار والخمران... لأن الفراغ نعمة مغبون فيها كثير من جمهور البشر، فكم من مترف في وقته يموج في خضم هذه الحياة بلا أمل يحدوه، ولا عمل يشغله، ولا رسالة يخلص لها ويصرف عمره لإنجاحه.

□ صفات الوقت وسبل الإفادة منه:

كلنا يعرف صفات الوقت، سواء السالب منها أو الموجب، وكلنا يشعر بها، ولكن هل نستذكرها ونحاسب أنفسنا، بل ونقيس أعمالنا وأعمارنا بها؟ نذكر منها صفتين:

أولاً: إذا مضى لا يعود:

وكيف يعود وقد طواه القدر طياً، وأصبح نسياً منسياً، يذكر صاحبه فيه الطاعة فيستشعر حلاوتها، ويتنعم بأنوارها المشرقة التي تصله بها، فيحمد الله تعالى على أن عصمه من الزلل في القول والعمل، ويذكر صاحب المعصية معصيته فيستشعر بحرقه في نفسه، وقلق يهز كيانه، واضطراب وخوف يتسلط على قلبه، فيعلن التوبة والأوبة، ويذرف الدموع حسرة على ما سلف، ويتأوه على أيام عصي الله فيها ويتمنى أن لو عادت لأصلح ما أفسد ولكن ولات ساعة مندم... إن الوقت أثمن من كل أموال الدنيا، ومن كل ألماسها وذهبها وفضتها، لأن مجوهرات الدنيا وأموالها إن ذهبت فليس من الصعب عودتها، بل لربما تكون مسيرة على الناس فتعود، أما الوقت إن ذهب ومضى فهيهات هيهات أن يعود...

يقول الحسن البصري رحمه الله تعالى: ما من يوم ينشق فجره إلا وينادي: يا ابن آدم أنا خلق جديد، وعلى عملك شهيد، فتزود مني فإنني لا أعود إلى يوم القيامة.

فكم من الناس تمر عليهم أوقات بغير عمل مفيد، ولا منفعة حاصلية، أو يعمل ثانوي لا يكاد يذكر، وتكون العاقبة والمحصلة النهائية تبديد الوقت، وضياع العمر بغير فائدة مرجوة، ولا منفعة مطلوبة، وهذا هو قمة الغبن الذي نبه إليه النبي الكريم ﷺ.

وهذا عمر بن عبد العزيز رحمه الله يخطب آخر خطبة له، يدعو فيها الناس لاغتنام الأوقات بالصالحات، ويبين فيها سرعة زوال الدنيا وانقضاء أوقاتها يقول: (إنكم لم تخلقوا عبثاً، ولن تتركوا سدىً، وإن لكم ميعاداً ينزل الله للفصل بين عباده، فقد

خاب وخسر من خرج من رحمة الله التي وسعت كل شيء، وحرمة جنة عرضها السموات والأرض، ألا ترون أنكم في أسلاب - أسلاف - الهالكين، وسيرتها بعدكم الباقون كذلك حتى ترد إلى خير الوارثين، وفي كل يوم تشيعون غادياً ورائحاً، إلى الله قد قضى نحبه وانقضى أجله، فتودعون وتدعون في صدع - الشق - من الأرض، غير موسد ولا مههد قد خلج الأسباب، وفارق الأحباب، وسكن التراب، وواجه الحساب، غنياً عما خلف فقيراً إلى ما أسلف، فاتقوا الله عباد الله قبل نزول الموت وانقضاء مواعيته، وإنني لأقول لكم هذه المقالة، وأعلم ما عند أحد من الذنوب أكثر مما أعلم عندي، ولكني أستغفر الله وأتوب إليه... ثم رفع طرف رده وبكى حتى شهق، ثم نزل فما عاد إلى المنبر بعدها حتى مات رحمة الله عليه⁽¹⁾.

□ ثانياً: محدودية الوقت:

وذلك تبعاً لقصر عمر الإنسان، فعمر الإنسان في هذه الدنيا محدود، وأنفاسه معدودة، وكلما خرج نفس نقص من عمره، والإنسان مهما عاش فإنه لا يجاوز السبعين أو الثمانين وقليل من الناس من يصل المائة، ورسولنا ﷺ يقول: «أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين، وأقلهم من يجاوز ذلك»⁽²⁾.

يقول الدكتور عبد الستار نوير: (وهذا العمر قصير بكل نظرة ومقياس، إنه قصير بالنسبة إلى مواهبه العالية، ومطامحه البعيدة، وآماله العراض، الأمر الذي يجعله يخدع نفسه ويتجاهل نهايته المحتممة، كأن الموت فيها على غيرنا كتب، وكأن الحق فيها على غيرنا قد وجب، وكأن الذي نشيع من الأموات سفر عما قليل إلينا راجعين، ندخلهم قبورهم ونأكل تراثهم، كأننا مخلدون بعدهم.

وهو قصير بالنسبة لأعمار السابقين، وهذا أمر مشهور غني عن البيان، وثابت

(1) البداية والنهاية لابن كثير، 9/ 199، وصفة الصفوة، 2/ 123-124.

(2) رواه ابن حبان في صحيحه، 7/ 246، رقم: (2980)، والحاكم في المستدرک، 2/ 463، رقم: (3598).

بالأخبار الصحيحة والأحاديث الشريفة، بل هو قصير بالقياس لعمر بعض الحيوانات التي هي دونه رتبة ووظيفة، إن الفيل يعيش كما جاء في دائرة معارف القرن العشرين لمحمد فريد وجدي، نحواً من 200 سنة، والسلحفاة تعمر عدة مئات من الأعوام، أي أن الواحد من تلك الحيوانات الخاملة الذكر، يستطيع بما وهبه الله من سعة الأجل، أن يشهد مصرع عدة أجيال، بل عدة شعوب من بني الإنسان السيد المكرم⁽¹⁾.

ويقول ابن القيم في منزلة الغيرة: (الغيرة على وقت فات، فإن الوقت أبي الجانب بطيء الرجوع، فالوقت أعز شيء على العباد، يغار عليه أن ينقضي بدون ذلك، فإذا فاته الوقت لا يمكنه استدراكه البتة، لأن الوقت الثاني قد استحق واجبه الخاص، فإذا فاته وقت فلا سبيل له إلى تداركه... فالوقت منقضى بذاته، منصرف بنفسه، فمن غفل عن نفسه تصرمت أوقاته، وعظم فواته، واشتدت حسراته، فكيف حاله إذا علم عند تحقق الفوت مقدار ما أضاع، وطلب الرجعى فحيل بينه وبين الاسترجاع، وطلب تناول الفائت فكيف يرد الأمر في اليوم الجديد؟ ﴿وَقَالُوا ءَأَمَّنَّا بِهِ. وَأَنَّى لَهُمُ اتِّنَابُهُ مِنَ مَكَانٍ يَعْبُدُونَ﴾ [سَبَأ: 52]، ومنع مما يحب ويرتضيه، وعلم أن ما اقتناه ليس مما ينبغي للعاقل أن يقتنيه، وحيل بينه وبين ما يشتهيه⁽²⁾.

وأما بالنسبة للاستفادة من الوقت، فيكون على الشكل التالي:

أ برمجة الوقت وتنظيم العمل فيه، بحيث لا يدخل الإنسان أي عمل كان مهماً صغيراً أو كبيراً، إلا بشكل دقيق منظم، وأن يبعد نفسه عن الارتجال في العمل، فإن الارتجال يوقع في الإرباك والزلل.

ب أن يحرص المسلم على حسن إدارة وقته مع المقربين والعوام، بحيث يحدد مواعيد الزيارة بلباقة وأدب، فإن زاره ضيف، فإما أن يستفيد من علمه، أو

(1) الوقت، د. عبد الستار نوير، ص 22.

(2) مختصر مدارج السالكين، 2/ 841.

إن الأمة تعيش عشر ما ينبغي أن تعيش، أو أقل من ذلك، سواء في إنتاجها المالي، أو ثقافتها العقلية، أو حالتها الصحية، وباقى حياتها هدر، في كسل أو خمول، أو بين نرد أو شطرنج، ولهوٍ ولغو، أو في لا شيء، ولا ينقصها لتعيش إلا أن تكتشف طريقة ملء الزمن، وخضوعه لحكم الشرع والعقل⁽¹⁾.

و كثرة الدعاء والتضرع إلى العلي القدير أن يبارك في الأوقات والأعمار والأرزاق، ففي سجودك أخي المسلم، ادع الله أن يطرح البركة في أوقاتك، ليزداد نشاطك وحيويتك وإنتاجك، ورسولنا ﷺ كان يدعو فيقول: «اللهم بارك لأمتي في بكورها»⁽²⁾.

وحدد وقت البكور، لأنه خير ساعات اليوم، إذ يكون الإنسان فيه أوفر نشاطاً وأصفى ذهنًا ونفساً، وأقدر على الإنجاز، وفي الحديث الذي رواه البيهقي عن فاطمة الزهراء رضي الله عنها، قالت: مرّ بي رسول الله ﷺ وأنا مضطجعة متصبحة فركلني برجله، ثم قال: «يا بنية، قومي اشهدي رزق ربك ولا تكوني من الغافلين، فإن الله يقسم أرزاق الناس ما بين طلوع الفجر على طلوع الشمس»⁽³⁾.

فيادروا أيها الصائمون الكرام:

إلى استغلال نفحات رمضان، ولا تلهيكم مغريات الحياة المتعددة الفاتنة، لقد قضينا أحد عشر شهراً من السنة في اللهو واللعب، أفلا يستحق شهر الرحمن هذا منا أن نحسن إكرامه وضيافته، فتملاً جعبته وليله ونهاره بطاعة الرحمن جلّ في علاه، ليشهد لنا يوم القيامة، اللهم لا تدعنا في غفلة، ولا تأخذنا على غرة، ولا تجعلنا من الغافلين، واجعلنا من عبادك الذاكرين، نعم المولى أنت يا ربنا ونعم النصير.



(1) قيمة الزمن عند العلماء، عبد الفتاح أبو غدة، ص122.

(2) رواه أبو داود، 3/79، رقم: (2606)، والدارمي، 2/661، رقم: (2345).

(3) المنذري في الترغيب والترهيب، 2/336، رقم: (2616).